تعقيب:

من هذا العرض السريع للتصوف ومحاولة إبراز دوره في التربية الأخلاقية للمسلم، نستطيع أن نستخلص أن التصوف يهدف إلى إيجاد المسلم الكامل المتحلي بأرقى الأخلاق وأجمل الصفات، ونقاء السريرة، وطهارة الظاهر والباطن، وإيجاد المؤمن العارف بالله معرفة قلبية، لا يتطرق إليها شك، مستندًا في ذلك إلى الكتاب والسنة.

وإذا كان التصوف كما يقول أهله: علم بالشريعة وعمل بها؛ فإنه يكون نعم الوسيلة لتربية المسلم وتهذيب أخلاقه وتمسكه بالسنة واقتدائه بالرسول الكريم.

ولو كان الأمر يقف عند هذا الحد ما كان التصوف قد تعرض لهجوم الفقهاء وطعناتهم وإنكارهم.

ولكن الصوفية الذين سبق الإشارة إلى شطحاتهم ومذاهبهم في الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ووحدة الشهود، وغيرها من الفلسفات التي خرجت بالتصوف من إطار الشريعة والالتزام بالكتاب والسنة، مما أثار غيرة الفقهاء وعلماء الشريعة أمثال أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ- ٨٥٦م) وتقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وغيرهم، فكتبوا عدة مصنفات هاجموا فيها التصوف والصوفية، ونقدوا مذاهبهم الخارجة على ظاهر الشرع، والداعية إلى البلبلة والزندقة.

وفي سنة ٧٢٦ هـ أصدر ابن تيمية فتواه التي حرم فيها زيارة أضرحة الأولياء والالتجاء إليهم والتبرك بهم وطلب العامة منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم.

ونقد ابن تيمية الصوفية وخاصة أصحاب الشطحات، وأظهر أن أقوالهم تخالف العقل والنقل في مصنفاته، من أمثال ابن عربي، وصدر الدين القوني، وابن الفارض، وابن سبعين، وعامر البوصيري، ونجم الدين ابن إسرائيل، وعفيف الدين التلمساني، والحلاج، وغيرهم، وأوضح أن كلامهم ومذاهبهم مخالفة لظاهر الكتاب والسنة.

ورغم محاولات الغزالي في القرن الخامس الهجري أن يلتزم في تصوفه بالكتاب والسنة إلا أن خلال القرن السابع الهجري وما تلاه من قرون اشتدت الخصومة من جديد بين الفقهاء والصوفية[(١)].

---

(١) انظر د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام.

وإذا حاولنا أن نضع التصوف في الميزان وننظر إليه نظرة موضوعية فإننا نجد أنه كالعملة التي لها وجهان، فالتصوف له إيجابياته، وسلبياته، وله مزاياه وعيوبه.

فنحن ننشد تصوف جديد خال من الشطحات والعبارات الخارجة عن الشرع وروح الإسلام، موافقًا للكتاب والسنة، كما كان الحال في تصوف الغزالي.

ومنقى من البدع السلوكية أيضًا، فقد لحق بالتصوف بدع فكرية، وبدع سلوكية، تتمثل البدع الفكرية في المذاهب التي سبق الإشارة إليها، وتتمثل البدع السلوكية فيما يحدث في الموالد وحلقات الذكر والسماع من سلوكيات تسيء إلى الإسلام كالرقص والتصفيق والتمايل الصياح.

وما يلجأ إليه المدعين للتصوف من الاتجار بالدين وارتداء الملابس الممزقة القذرة والتكاسل عن العمل والشحاذة، والاعتماد على غيرهم في التكفل بمعيشتهم، فكل هذه السلوكيات مخالفة للإسلام وخارج عن تعاليم الكتاب والسنة.

فعلينا أن نستبعد من التصوف كل ما يشوبه من الأمور الدخيلة، والغريبة، والمبتدعة، سواء كانت مذاهب فلسفية، أو أنماط سلوكية شاذة عن أخلاقيات الإسلام.

ونعمل على تنقية التصوف مما يسيء إلى الإسلام، وأن نأخذ بالجانب الإيجابي منه المتمثل في أخلاق العارفين السامية، والتمسك بالشرع والعمل به، والاقتداء بالرسول الكريم في أقواله وأفعاله، وشدة الإيمان واليقين حتى يكون الصوفية قدوة للناس، وحتى يخلو التصوف في كل ما يشوبه كالتواكل، والتقاعد عن العمل وعدم الإنتاج؛ للمساهمة في تقدم المجتمع المسلم ورفع مستواه ماديًا وأخلاقيًا، وعدم المبالغة في ذكر الكرامات، وعدم اتخاذ واسطة بين العبد وربه، والبعد عن كل ما يخالف الشرع.

خاتمة

من دراستنا السابقة للتصوف ودوره في التربية الأخلاقية للمسلم يمكن أن نتوصل للنتائج التالية:

١- لم يُعرف لفظ تصوف إلا في القرن الثاني الهجري.

٢- التصوف علم ديني قائم على الكتاب والسنة، وله رسوم عملية ونظرية.

٣- يهدف التصوف إلى الوصول بالمسلم إلى درجة عالية من الكمال الأخلاقي تؤهله لمعرفة الله معرفة قلبية.

٤- يقوم التصوف على مجاهدة النفس بالرياضات العملية والروحية لتطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة.

٥- أهم الرياضات العملية التي يصطنعها الصوفية لمجاهدة النفس هي: الصلاة، والصوم، والذكر، والسماع، والدعاء، والسهر، والعزلة، والخلوة، وغيرها.

٦- التصوف علم الباطن يبحث فيما وراء هذه العبادات من غرض ومعنى.

٧- السالك طريق الصوفية يصحح مقامات سلوكه ويبدل صفات نفسه الذميمة بأخرى حميدة وهذا ما يطلقون عليه التخلية والتحلية.

٨- من أهم المقامات الصوفية: التوبة ، والزهد ، والتوكل ، والشكر ، والإحسان ، التقوى، والورع، والخوف، والصدق، والحياء، والتواضع، والرضا، والمحبة، والمراقبة ، والمحاسبة، والصبر، وغيرها.

٩- يختلف عدد المقامات وترتيبها من صوفي لآخر.

١٠- المتحقق بالمقامات الصوفية يصل إلى درجة عالية من الثقافة الروحية والكمال الأخلاقي فينعم الله عليه بواردات الأحوال.

١١- الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال زائلة، والمقامات دائمة.

١٢- من أهم الأحوال الصوفية: حال القرب – حال اليقين – حال القبض والبسط – حال الفناء البقاء، وغيرها.

١٣- التحقق بالمقامات والأحوال ومجاهدة النفس بالرياضات العملية يكسب المسلم سلوكيات حميدة وأخلاق سامية.

١٤- كان لبعض رجال الصوفية شطحات خارجة عن ظاهر الشرع أساءت إلى التصوف وبعدت به عن روح الكتاب والسنة.

١٥- عمل الغزالي على أن يوجد تصوفًا سُنيًا خاليًا من كل ما يخالف الكتاب والسنة.

١٦- هاجم الفقهاء التصوف لما أدخله على الإسلام من نظرات فلسفية غريبة عن الإسلام، ولما يقوم به بعض الصوفية من الطقوس والرسوم التي اعتبرت بدعة.

١٧- التصوف في حاجة إلى تنقية من شوائب الأفكار والمخالفة للإسلام والسلوكيات التي تسيء إليه وإلى الدين الإسلامي.

١٨- علينا أن نبذل جهدًا لتنقية التصوف من كل البدع الدخيلة واستثماره في خلق المسلم المؤمن الملتزم بالكتاب والسنة قولاً وفعلاً.

١٩- وعلينا أن نفرق بين المدعين للتصوف والصوفية المحققين.